قصة قصيرة

كتلة لزجة تغلي

فاتح عبد السلام

الى روح الشهيدة دلال مغربي :

ـ « لقد فندت فعل الكلمات » .

ضجة ... تنشر الراقصة أطراف ثوبها الاحمر . وتسقط الاضواء الداكنة في فراغ الصالة . تدور الراقصة ، تحلق عينا (عمران) ، يتأرجح الضوء الساقط ، وتفرد الراقصة ساقا بضة وتلف على الساق الاخرى برشاقة ، تنأى الاصوات عن مسمعيه ، يطير ، يغيب ، لكنه يباغت بروائح عبقة ، مبهمة كليل هذه الصالة ... يعمّ الصخب في جسدها النابض ، وتتطاير أطراف الثوب الاحمر الشفيف .. العالم بلون الثوب .. تدور الراقصة فتجمد الاشياء في بؤبؤي عينيه ... ضحكات يغالبها الاختناق ، وعيون تغالب النعاس . ما يلبث الضوء أن يكتسح الصالة ، الوجوه ، حركة الجسد البض ، وبؤرا تتكور أجساد الرجال فيها هنا وهناك ، يملؤها الخدر ، ويزهو الرجال فيها وتتطاير رغباتهم مع رذاذ زبد أفواههم ... وفي ما بعد يعلن الملتسح ان شيئا لا يوجد غير الفراغ .

. . . . . .

وسط الضجة ، ينبهه هاجس ما أن يصرخ ، يهم أن يفعل ، لكنه يشعر ان المحاولة يائسة ، والصوت ضائع ... وبغتة ، لا يسمع شيئا غير خرير الويسكي المنسكب في حلقه ، ما يلبث هذا الخرير أن يصبح هديرا ، يغلي في أعماق عمران ، وعمران كتلة لزجة تغلي .

... تقترب الراقصة ، فيكون الثوب الاحمر قد احتواه الهواء وبدا فضفاضا ، يزيح الاشياء ويحلّ محلها .

* صورة يومية *

تركض « وردة » القروية الجنوبية (١) ، صبية في العاشرة ، تلاحقها عينا « عمران » القروي الجنوبي (٢) ، صبي في الثانية عشرة ، وهي تغوص في ثوبها الاحمر الوحيد .. تبتعد ، وتقتعد لها مكانا عند التل الاخضر ، تختلج قدما عمران فيعدو خلفها ، يجاورها الجلوس ، ويحتضنا دمى الخرق القماشية معا .. ويكون الاطفال خلفهما منتشرين عند أطراف التل ، ينظر في عينيها الصافيتين الواسعتين ، ثم يكتئب على حين غرة ، اذ الشمس قد هبطت خلف التلال المتناثرة ، لقد حلّ المساء ، وحان موعد الافتراق ... يعود كل منهما الى منزله القروي الرطب، بعد أن يتحسس صورة حزينة ، تتقاطر عندها كلّ الابعاد ، ثم تتلاشى .

* * *

تنتهي الرقصة ... تتصلب الراقصة لحظات ، ويستحيل الجسد البض جسدا من رخام لتمثال منحوت بأناة ، تضج الصالة بالتصفيق ، وهمهمات النساء ، والهلاهل الرجالية ، والصيحات المبحوحة ... ترتفع أجساد وتهبط أخرى ... يعم الصالة ضباب رمادي ، ينظر (عمران) بعمق ... ويصمت .

. . . . . .

منضدة ، وجسد راكد عندها ، لا شيء غير الكؤوس الزجاجية التي تختلج أصواتها بين الفينة والفينة ... وكأسه خاو ... يرشق الزجاجة بنظرة ، ثمة فراغ يشغلها من القمة حتى القعر . تهدأ الاصوات في أعماقه لحظات ، كالمياه عند قاع البحر ، يشعر

---

(١) و (٢) ـ « وردة » و « عمران » صبية وصبي من قرية في جنوب لبنان .

بضيق ، الاصوات لم تعد تحدث ضجيجا ... الهوس يستهلكه ، تمتد يد (عمران) الى الكأس ، تجاذبه رغبة ما ، ويحتدم حوار داخلي في أعماقه ، يتولد جو يضج من جديد ، يتهشم الكأس ، فتتبعه ثلاثة كؤوس ، بحركات آلية .

لم يعد هنالك ثمة غضب ، لقد غادرت اللذة أعماق (عمران) ، تبدد كل شيء !!.. وبغتة ، يعود كل شيء ، تنشر الراقصة ثوبها (نفس الثوب الاحمر لم تغيره) . تسبح أطرافه عرض الهواء ... يمتلىء بالهواء ، يبين أحمر شاحبا ، فيكتئب (عمران) ، يفرغ منه ، يلتصق بجسدها ، فيبين أحمر قانيا ، ويشعر بلذة تغزو جسده ... تتلملم أطراف الثوب ثم تضيع ... ويبقى جسد الراقصة يهتز بتذبذب كشجرة خريفية عارية في مهب ريح ، يسدد عمران نظراته . لا شيء غير راقصة عارية من الثوب الاحمر ، ويحسّ بامتلاك شرعي للثوب !! لكن الراقصة تنأى قليلا عن عيني عمران بمراوغة ، وتكمل رقصتها بعيدا عنه متفننة في نشر أطراف ثوبها ولمّها بخفة ، واظهار ثنايا جسدها الزئبقي ... والصخب هو ذات الصخب .

* صورة نادرة *

كانت قد مرت سنتان ...

ذات صباح ، تألقت عينا (وردة) ابنة الشهيد عبد الرحمن الجنوبي ، وهي ترشق التلّ الاخضر المسور لفريتها .. بنظرات ملؤها التوهج ، وكانت قد بدت أكثر جمالا ، وروعة ، في شعرها الفاحم المسترسل في الهواء ، وثوبها الاحمر الوحيد !

اقتربت من (عمران) الذي ترك كل شيء ، وراح يصيخ باهتمام ، وهي تحدثه :

ـ انتبه للذي سأقوله ، اني خائفة يا عمران .

ـ ولِمَ الخوف ؟؟!!

ـ من كلام جدي ... انه بينما أخذ يهدئني بسبب عدم استطاعته شراء ثوب جديد لي بمناسبة العيد ، راح يقول لي كلاما غريبا ومخيفا .

ـ أي كلام مخيف هذا ؟!

ـ لقد قال : « ان ثوبك الاحمر هذا ، علامة خطرة ، يجذب الانظار في المناطق النائية ، ولا سيما انظار العدو » . يعني عليّ ان ألزم البيت ، فلا أبتعد عنه الا بضعة أمتار ، اني خائفة وحائرة يا عمران .

ـ لا تفكري هكذا ، بلا شك كان يمزح معك .

ـ لا ... ان حدس جدي لا يخيب .

ـ أووه .. اذن انزعيه ، ما دام يقلقك بهذا الشكل .

ـ كيف ؟!

ـ فكي أزراره ... هكذا ...

أبعدت يده ، وقد ضاق صدرها بحسرة ، أطلقتها بشكل ضحكة متفجرة ومنقطعة ، ملؤها حزن عميق ، شوب بشرتها البيضاء بحمرة داكنة ، أدارت رأسها ، وأطلقت فدميها الحافيتين ..

كان الطريق ترابيا ، والجو غائما مكتئبا . وكانت تمقت في نفسها أشياء كثيرة ، منها ثوبها الاحمر ، الذي بدا في مهب الريح قاحلا تماما .

* * *

ليل ثقيل . عمران منزو ، منغلق عن الصخب ، لا شيء هنا غيره ، تنسحب الاشياء من أمامه ، الا الثوب ، حيث يدخل في عمق عينيه ، يوم أن يستنشق رائحته . يفكر برائحة التراب الجنوبي الطيبة ، رائحة دونها عطور الياسمين .

تلف الراقصة وتدور ، لا تكلّ عن الحركة « لتقترب منه » . عن هذا تحدثه الرغبات في أعماقه . بغتة ، تنفرد الراقصة به . يلهث الجميع على كؤوسهم ناقمين ، هناك بعيدا عن الضجة ، عمران وثوب أحمر ، عمران ووردة .. لا شك انها بين يديه الآن ، يستنشق عبيرها ، عبير الثوب ، يلامسه بأرنبة أنفه ، ويدسّ وجهه فيه ... ويغرق .

يلعنه الجميع ، ويكيل له السباب ...

ـ انظروا ... تنفرد هذه الساقطة بذاك الوغد ، دوننا . تفووه ... تفووه .

. . . . . .

ينهض (عمران) ويدور حولها ، تراوغه ، يشهق الرجال . انه يغرق ، انهم يزدادون حماقة ، وغباء .

* صورة خاصة *

كانت (وردة) تجيئه كل يوم .. أو يجيئها . لا شك ان حبهما أصبح عظيما ، بعد ثلاث سنوات من النضج والمعاناة المشتركين ، كانت القرية دونهما في كل شيء ، نجمتان متوهجتان أبدا ، وذات ضحى ، كان الجو متوترا بصمت ، كل شيء يلتزم الصمت الا هما ، ترى ماذا سيفعلان ؟

سألها (عمران) :

ـ وردة .. بماذا يخبرك جدك هذه الايام ؟

ـ يقول .. ان القرية لم تعهد الصمت منذ ولد فيها . والصمت يعني بالنسبة لها الاختناق ، وينبىء بحدوث كارثة .

ـ يستر الله .. يا ورده . علينا أن نجعل أهالي القرية أكثر صمودا وعزيمة .

ـ العزيمة موجودة ، لكـــن جو الغموض هـذا يعلفهم ، وقد قطعهم عن الاتصال بالمـــدينة ، او حتى بالقرى المجـــاورة الاخرى .. لم نسمع غير صـوت انفجارات هنا وهناك ، ومن بعيد أيضا !!

ـ بالرغم من كل شيء .. ان قريتنا أبعد القرى عن العاصمة وعن جو المنازعات الاخرى فـي الضواحي والجنوب ..

ـ حتما ستصل شرارات النار الينا يوما ، واعتقد ان ذلك اليوم ليس ببعيد .

ـ ان أهالي القرية شجعان .. رجـالا ونساء . سنحـــارب يا وردة ، ولا شك سننتصر .. أليس كذلك ؟ هاه ... أليس الامر صحيحا ؟ تكلمي ..

ترفع وجهها .. بعد اطراقة قصيرة وتقول بثقة عاليـــة :

ـ ان شاء الله .. هيا بنا الآن .

* * *

تبتعد الراقصة كفراشة ، تمتص نقمـــة الرجال الآخرين ، وتخلف هذه المرة عمرانا وحيدا . «أتخدعه» ؟ فكر بهذا السؤال . لم يكن هنـالك اثر للثوب . صرخ مناديا النادل .. الـــذي امتثل حالا أمامه كفأر فـي مصيدة :

ـ نعم سيدي ، أمرك ..

ـ ثوب الراقصة ، أيها النادل .

ابتسم النادل ، وتكلم وهو مطرق بحياء :

ـ أعجبك ؟ انهـــا ستعرضه مع بعض الثياب النفيسة والتحف الاخرى للبيـــع ، ستغادر البـــلاد لاوروبا ... سآتيك بفاتورة أسعـار الثياب ، الاسعار مناسبة ، وبعد انتهاء الرقصة ، بامكانك أن تأخذه ، أو أن تأخذ واحدا مثله .

ـ امش .. أيها الاحمق ، اجلب الثوب حالا ، انه ثوبي ، ثوب وردة ، أيها الوغد ، تفووه عليكم جميعا .

نظر النادل بوجه نظيره الآخر ، وتمتما :

ـ لا شك انه يسكر لاول مرة ..

ـ أظن ذلك .

ـ اذن سأتركه .

صرخ (عمران) هائجا :

ـ لم أسكر يوما ما بعد ، أيها الوغدان.. الغبيان.

انزلق الفاران من المصيدة ، هربا من أمام عمران.. الذي صرخ وأصرّ ان الثوب ملكه الشرعي . وفجـأة ، انحنى على المنضدة ، ولم نعـــد نسمع منه الا نشيجـا مبحوحـا .

* صورة ازلية *

جفف الراوي دموعه ثم استانف روايته :

كان الوقت ضحى ، حـــين انهمرت سيول مـن الرصاص والقنابل . واخذت النـــار تلتهم كل شيء ، وبعد دقائق كـــان في قريتنا أناس غرباء ، يحملـــون الرشاشات النارية والقنابل ، ويطلقـــون بعشوائية ، عابثين في كل شيء ، يدخلون من غرفة الـى غرفة . ويذبحون جماعة تلو جماعة ، من أهالي القرية ، معظمهم من الاطفال ... بضمنهـم طف ..... لاي (شهـق الراوي ، وغصّ في بكاء حاد تحول الى نحيب .. ولولا الحاحنا لما واصل وأضاف) فعمران .. اختطف ، وهو في طريقه الى القرية مع بعض شبابها عند أحد الطرق الخارجية ، أخذوهم أصدقاء المزلفين ، وابتعدوا بهـم عن القرية ... الى معاقلهم المسلحة عند البحر ، ويقال انهم رموا بهم في البحر بعد أن قتلوهم .

أما (وردة) فكان لها قصة نادرة ورهيبة ، فقد اغتصبها شاب كتائبي مسلح عند انتهاكه حرمة بيتهـــا بعد أن استشهد جدها الباسل . لكنها قاومت ، قاومت طويلا ، وأدمت وجه المغتصب منـذ الوهلة الاولـى . لكنه عصب عينيها وحملها الى مكان ما خـارج القرية ، ويقال انه أخفاها معه لحين يروق الجو له ، وينفرد بها بعيدا عن أصحـابه المسلحين ... باختصار ، سلمت وردة منه ، وظل شرفهـــا مصانا ، بعد أن أصابتهـا رصاصات طائشة بين مغتصبها واحد أصحابه ، الذي طمع باغتصاب وردة ، وبأن يكون الصيد له وحده .

تضرجت الشريفة الحرة ، واختلط دمهـــا بتراب القرية .. وكل الروايات تجمع على انهما فرا مذعورين وقد أرعبهم منظر دمها الذي كان يغور في التـراب ، بالفة دونها التآلفات والانسجامات كلها .

. . . . . .

أوه .. عذرا أيها السادة ، أحس بأنني قد نسيت شيئا ما ، ولكن ، يا ترى ما هو ؟ (سـاد الجو صمت وترقب) .. أوه .. تذكرت ، تقول رواية رواها أحد الرجال القادمين من الخارج .. ان عمران ما زال حيـا يرزق ، وقد نجا بأعجوبة !! وكان قد التقى به فـي احدى الحانات وحدثه شخصيا .. وقد سأله عمـران عن وردة ، وحين علم بنبأ استشهادها .. أكمل الكأس الذي بيده ، وقال :

ـ « ما دامت «وردة» قد ولدت من جديد نسغا صاعدا في دمي ، فان هذا الشراب القذر لن يسكرنـي أبدا » .

ترك الرجل عمران ، وغادر الحانة .

* * *

في الهزيع الاخير من الليل .

صرخ (عمران) .. امتثل النادل أمامه ، وانكمش . طلب منه الثوب من جديد ، وبصق في وجهه ، لحظة أحس بابتسامة تطفو على شفتيه ، ارتج النادل من أعماقه ، كان صوت عمران هادرا .. رهيبا ! ثم طلب أن تقترب منه الراقصة ذات الثوب الاحمر .

مكث في أفكاره طويلا ، مشوشا لحظات ، هادئا لحظات أخرى . لكن في عموم الحال ، بدا الاضطراب واضحا في وجهه .

لا زمن يوجد هنا ، والوجوه حربائية (من ذا الذي ينكر هذا ؟ ليقل أنا ، كي أضع له نهايته ؟) كان قد صرخ عمران بهذا التحدي .. لم ينتبه الرجال والنساء في بادىء الامر .. لكنهم فيما بعد انتبهوا !!

كانت الرقصة الاخيرة توشك على النهاية ، والراقصة تقوم بها في عنفوان الصخب . والحق ان (عمران) لم تستهوه الراقصة لحظة ما .. انتفض ، وكانت الراقصة تراوغه ، يقينا منها بأنه رجل شبق بلا حدود . وسكير بأكثر من ذلك .. عروقه تتفجر ، ثم تتشابك وتلين ، تموع وتصبح لزجة ، كتلة لزجة تغلي .. من ذا الذي يجرؤ أن يلمسها ؟.. ينهض (عمران) . تنأى الراقصة قليلا ثم تقترب فجأة .. لم ير شيئا ، كان ثوبها مخيما وحسب، مفروشا مهلهلا، يحتوي (وردة) في داخله ، يتموج فيحسّ عمران ان وردة تغني أغنية الجنة ، وتلوح بيدها ، أن يتبعها .. لم يكن أي شيء في عيني عمران ، سوى الثوب .. وردة ، لكن الثوب يبتعد ، انتبه عمران لذلك ، ازداد غليانا .. واستلّ قنينة زجاجية ، من مائدة مكتظة بمثيلاتها كما تستلّ الخناجر من أغمادها .. تقدم « ان وردة تنتهك حرمتها الآن ، وردة تحت الاقدام .. عارية .. بلا ثوبها !! » .

وفي لحظة خاطفة كان كل شيء قد تم .. قصم عمران رأس الراقصة ، وهي تتلوى ، وتنكمش ، وتطلق ساقيها العاريتين مرة ومرة ، وثوبها الاحمر يبتعد معها، بات يحمل سماتها « ظل شرف وردة مصانا .. أبدا » . اختلط الدم بالثوب والجسد العابق برائحة العرق الآسنة . ان الراقصة تؤدي الآن ، بين المناضد ، طقوس رقصة الوداع . وبدا (عمران) يعالج انتزاع ثوبها . لكنها ظلت تنوء مضرجة بدمها في الضجة .. وقد انتبه الرجال هذه المرة بشكل جديد ، واتجهوا يحملون همّ رجولتهم ، ويلعنون عمران ، ويهمون بقتله .. وهم المتحدون الوحيدون أبدا ، في ليل الصالات هذه .. وكل نسائها بغاياهم . لكن ... ظل كل واحد منهم يجهل :

ان عمران دونهم جميعا ، كتلة لزجة تغلي .

الموصل (العراق)

صدر حديثا

روايات وقصص

د. سهيل ادريس

في طبعة جديدة :

الحي اللاتيني

(الطبعة السابعة)

الخندق الغميق

(الطبعة الثالثة)

اصابعنا التي تحترق

(الطبعة الثالثة)

قصص سهيل ادريس

في جزئين :

اقاصيص اولى

اقاصيص ثانية

منشورات دار الآداب